جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

من بلاغة النبي في حديثه عن الصبر

إعداد

وليد السيد مصطفى فرج
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة، جامعة الأزهر
سحر منصور السيد صباح
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة المجمعة، المملكة العربية السعودية

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

من بلاغة النبي في حديثه عن الصبر

وليد السيد مصطفى فرج

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الالكتروني: Dr.waleedfarag@azhar.edu.eg

سحر منصور السيد صباح

قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة المجمعة، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: Sahar.m@mu.edu.sa

الملخص:

هذا بحث بعنوان (من بلاغة النبي في حديثه عن الصبر) يهدف إلى استكناه الأسرار البلاغية والدقائق التعبيرية في حديث النبي ﷺ عن موضوع من أهم الموضوعات التي تقوم عليها حياة المسلم، وهو موضوع الصبر، لكونه من أعظم الفضائل التي يُتَحلَّى بها، فالصبر من خلق النبيين والمرسلين –عليهم الصلاة والسلام – وسيرة الصديقين والصالحين والشهداء، ودأب الأخيار والأولياء، وطريق الأبرار والأصفياء والأتقياء.

وينشغل بالإجابة عن سؤالين هما : ما أهم الأساليب البلاغية التي غلبت على حديث النبي ﷺ عن الصبر؟ وما الأسرار البلاغية والدقائق التعبيرية وراء توظيف تلك الأساليب؟

وكان المنهج المتبع فيه منهجاً وصفياً تحليلياً، يعنى بتلمس جميع العلاقات اللفظية الحسية المفضية إلى استنباط جميع العلاقات الروحية المعنوية التي تشد الكلام بعضه إلى بعض، مع رصد أهم السمات التركيبية والأساليب المهيمنة على التعبير عن هذا الموضوع.

وقد قُسَم إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة

ذُكر في المقدمة أهمية الموضوع وأهدافه، ومشكلة البحث ، والدراسات السابقة ، ومنهجه وكيفية تقسيمه.

وجاء المبحث الأول بعنوان بلاغة التعبير عن ماهية الصبر.

وجاء المبحث الثاني بعنوان بلاغة التعبير عن فضل الصبر والجزاء عليه.

وتضمنت الخاتمة أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة، وخُتم البحث بثبت لأهم مصادره ومراجعه.

الكلمات المفتاحية : البيان التعبير البلاغة الصبر النبي.

Of the Prophet's eloquence in his talk about patience

Waleed Al-Sayed Mustafa Farag
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
Email: Dr.waleedfarag@azhar.edu.eg
Sahar Mansour Al-Sayed Sabah
Department of Arabic Language, College of Education, Majmaah University, Saudi Arabia.
Email: Sahar.m@mu.edu.sa

Abstract:
This is a research entitled (From the eloquence of the Prophet in his hadith on patience) that aims to discover the rhetorical secrets and subtleties of expression in the hadith of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, on one of the most important topics on which the life of a Muslim is based, and it is the subject of patience, because it is one of the greatest virtues that he is endowed with, so patience From the creation of the prophets and messengers - may blessings and peace be upon them - and the biography of the righteous, the righteous and the martyrs, the perseverance of the righteous and the saints, and the path of the righteous, the pure and the pious.
He is preoccupied with answering two questions: What are the most important rhetorical methods that prevailed in the hadith of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, about patience? What are the rhetorical secrets and expressive subtleties behind employing these methods?
The approach followed was a descriptive and analytical approach, concerned with perceiving all sensory verbal relationships that lead to eliciting all spiritual and moral relationships that bind speech to each other, while observing the most important structural features and dominant methods for expressing this subject.
It was divided into an introduction, two chapters and a conclusion
The introduction mentioned the importance of the subject and its objectives, the research problem, previous studies, its methodology and how to divide it.
The first topic was titled Rhetorically Expressing the Nature of Patience.
The second topic came under the title of rhetoric expressing the virtue of patience and the reward for it.
The conclusion included the most important results of the study, and the research was concluded with the most important sources and references.
Keywords: Statement, Expression, Eloquence, Patience, The Prophet.

مقدمة

قد أجمع الباحثون قديماً وحديثاً على أن البيان النبوي قد سما إلى ذروة البلاغة وحلَّق في سماء البراعة والفصاحة، وإن كانت بلاغته تابعة لبيان القرآن الكريم متشبثةً بأذياله متبوعةً من كل بيان بشري قائدةً له.

« فنحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضربًا وحده، ونرى الأسلوب النبوي، فنراه ضربًا وحده لا يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعودًا، ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضربًا واحدًا لا تعلو عن سطح الأرض، فمنها ما يحبو حبوًا، ومنها ما يشتد عدوًا، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه "السيارات" الأرضية إلى تلك "السيارات" السماوية! » (١)

وكلام النبي ﷺ هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، ... واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، ، ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلّى الله عليه وسلّم كثيراً. (٢)

فـ « إن الله جل وعز لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها، ليباشر في لباسه مشاهد التبليغ وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف، ثم أمده

(١) النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز، ص ١٢٨، دار القلم ، ٢٠٠٥ م.

(٢) ينظر البيان والتبيين للجاحظ ، جـ ٢ ص ١٣ وما بعدها بتصرف، دار ومكتبة الهلال بيروت، ١٤٢٣ هـ.

بجوامع الكلم التي جعلها ردءا لنبوته وعلما لرسالته؛ لينتظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه ولا يؤودهم حمله، ومن تتبع الجوامع من كلامه لم يعدم بيانها » (١)

فـ « الإبلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات » (٢)

ولهذه المكانة السامية للبيان النبوي، ولهذا الفضل العظيم، أردت أن أتفيأ ظلاله الوارفة، وأرتاد رياضه العاطرة، وأرشف من رحيق عطائه الشافي، فاخترت موضوعاً من أهم الموضوعات التي تقوم عليها حياة المسلم وهو موضوع الصبر لكونه من أعظم الفضائل التي يُتَحلَّى بها، فالصبر من خلق النبيين والمرسلين – عليهم الصلاة والسلام– وسيرة الصديقين والصالحين والشهداء، ودأب الأخيار والأولياء، وطريق الأبرار والأصفياء والأتقياء.

لأقف على دقائق تعبير البيان النبوي عنه، حتى يكون خطاباً ناجعاً يلجئ المخاطبين إلى الإذعان له والإتيان لما يُنصحون به.

فكان عنوان البحث (من بلاغة النبي في حديثه عن الصبر).

وكان من أهم أهدافه استكناه الأسرار البلاغية والدقائق التعبيرية في حديث النبي ﷺ عن موضوع الصبر.

وينشغل بالإجابة عن سؤالين هما : ما أهم الأساليب البلاغية التي غلبت على حديث النبي ﷺ عن الصبر؟ وما الأسرار البلاغية والدقائق التعبيرية وراء توظيف تلك الأساليب؟

---

(١) غريب الحديث للخطابي ، تحـ عبد الكريم الغرباوي ، جـ ١ ص ٦٤، دار الفكر دمشق، ١٩٨٢ م.

(٢) عبقرية محمد عباس العقاد ، ص ٧٣ دار الكتاب العربي ، ط١، ١٩٧١ م.

وأما عن الدراسات السابقة، فيمكن تقسيمها إلى قسمين :الأول منهما يعنى بدراسة الصبر في السنة دراسة موضوعية لا تتعرض للجوانب البلاغية ولا للأسرار البيانية ومن نماذجها دراسة بعنوان فلسفة الصبر في القرآن الكريم والسنة المطهرة للباحثين : جليب القريشي بركاوي، و خالد صدام الزبيدي مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية ،مجلد ١ عدد ١٥ (٢٠١٤)/

وقد تضمن هذا البحث معنى الصبر لغة واصطلاحا، وبيان أسماء الصبر والفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة، وأقسام الصبر وتعلقه بالأحكام الخمسة، وذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز وهي أكثر من سبعين آية قرآنية، وكذلك ذكر ما ورد في السنة المطهرة، والصبر نصف الإيمان وأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وبيان دخول الصبر في صفات الرب ﷻ وتسميته بالصبور الشكور، ثم بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في أي حال من الأحوال، ثم الخاتمة.

وواضح من هذا العرض أن هذه الدراسة تختلف تماماً عن بحثي في المنهج والأهداف والغايات والتقسيم ، بالإضافة إلى أنها لم تتجاوز تعداد وسرد النماذج من السنة المطهرة ، بخلاف بحثي الذي يعنى بدراسة بلاغية دقيقة للأحاديث النبوية المشتملة على موضوع الصبر .

ومنها ايضاً دراسة بعنوان : منزلة الصبر و الصابرين في القرآن الكريم والسنة النبوية ،للباحثة : عفاف مكاوي محمد قيلي، مجلة جامعة البحر الأحمر ، ع٤، ٢٠١٣

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز ذلك الثواب العظيم والأجر الكبير الذي وعد الله به الصابرين في القرآن الكريم ورغّب فيه النبي صلى الله عليه وسلم في السنة النبوية.

وكانت مشكلة البحث متمثلة في السؤال : ما هو الثواب المعد للصابرين وهل يتساوون في الجزاء المترتب على صبرهم.

وكان منهجها مزيجاً من عدة مناهج : المنهج الوصفي والتاريخي والتحليلي.

ويتضح من هذا العرض الفرق الكبير والبون الشاسع بينها ، وبين البحث الحالي ، فهما مختلفان في الأهداف والمنهج والمشكلة البحثية .

ومنها أيضاً دراسة بعنوان: الصبر في السنة النبوية : دراسة موضوعية للباحث أسعد إبراهيم حسن السيد، ٢٠٠٤، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية.

وواضح من عنوانها عنايتها بالدراسة الموضوعية ، بخلاف بحثي الذي يُعنى بالدراسة البلاغية التحليلية.

والثاني من أقسام الدراسات السابقة ، قسم يُعنى بالدراسة البلاغية ولكنها محصورة في نطاق ضيق.

ولم أقف إلا على دراسة واحدة تندرج تحت هذا القسم وهي دراسة بعنوان: البلاغة النبوية فى أحاديث الصبر من خلال صحيح البخاري رسالة ماجستير كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بالقاهرة ،٢٠٠٤ إعداد الباحثة أولفت محمد عبد الهادي عبد الحميد وهذه الدراسة محصورة في نطاق صحيح البخاري ، وبهذا تختلف عن بحثي الذي يتناول الأحاديث المعنية بالصبر من جميع كتب السنة ، بالإضافة إلى الاختلاف في المنهج وطريقة المعالجة .

وبهذا كانت الحاجة مُلِحَّةً إلى دراسة بلاغية دقيقة تتناول جل الأحاديث التي ذكرت ماهية الصبر وفضله والجزاء عليه ، فكان بحثي هذا تلبيةً لتلك الحاجة.

ولم يكن من أهدافه استقصاء جميع الأحاديث التي تناولت الصبر في جميع كتب السنة ، فهي كثيرة لا ينهض بها بحث واحد بل تحتاج إلى تضافر

جهود العديد من الباحثين، ولذا فقد ضيق دائرة بحثه لتشمل الحديث عن ماهية الصبر ، وعن فضله والجزاء عليه.

وكان المنهج المتبع فيه منهجاً وصفياً تحليلياً، يعنى بتلمس جميع العلاقات اللفظية الحسية المفضية إلى استنباط جميع العلاقات الروحية المعنوية التي تشد الكلام بعضه إلى بعض، مع رصد أهم السمات التركيبية والأساليب المهيمنة على التعبير عن هذا الموضوع.

هذا مع التركيز على الجملة التي تتحدث عن معنى يرتبط بالصبر، وهي من قول النبي ﷺ، وليست من أقوال محاوريه أو من أقوال الرواة.

ومع الإشارة إلى ارتباط الأحاديث النبوية الشريفة بعضها ببعض، وأنها تتكامل فيما بينها فاقتضى ذلك الموازنة بين بعض التراكيب المنضوية تحت لواء الحديث عن الموضوع العام.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة؛ ذكرتُ في المقدمة أهمية الموضوع وأهدافه ومشكلة البحث ، والدراسات السابقة، ومنهجه وكيفية تقسيمه، وجاء المبحث الأول بعنوان بلاغة التعبير عن ماهية الصبر،وجاء المبحث الثاني بعنوان بلاغة التعبير عن فضل الصبر والجزاء عليه، وتضمنت الخاتمة أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة، وخُتم البحث بثبت لأهم مصادره ومراجعه.

والله الموفق والمستعان

الباحث

المبحث الأول

بلاغة التعبير عن ماهية الصبر

يُعنى البيان النبوي بجميع ما يتصل بأمور المسلم الدينية والدنيوية، ويترجم عنها جميعاً بأسلوب يبلور الفكرة ويوضحها أتم توضيح متخذا من شتى الأساليب والفنون البلاغية وسيلة لأداء تلك المعاني بطريقة تجتذب المخاطب وتُلجئه إلى الإذعان والقبول، وتحمله على تنفيذ ما يُطلب منه أو ما يُنصح به. وهذا ما نجده جلياً في تناوله لموضوع الصبر، ذلك الموضوع الذي تمس حاجة الإنسان عموماً إليه ولا سيما المسلم الذي يكابد الحياة ويجاهد فيها، محاولاً التغلب على مشاقها، واجتياز أزماتها وعثراتها، وهو لكي يحقق إيمانه الكامل يعمد إلى مجاهدة نفسه لقبول ما يعتريه من الرزايا والبلايا، ويجاهدها أيضاً ليعصمها من التردي في مهاوي الخطاياً وليثبتها على درب الطهارة وكريم السجايا.

ولذا فإن البيان النبوي قد بيَّن في غير موضع ماهية الصبر بأسلوب بليغ رفيع وتعبير موحٍ دقيق موضحاً طبيعته وثماره التي يجنيها المسلم .

ولكي يحثه على اعتناق الصبر عقيدةً ومنهجاً، واتخاذه قارباً ينجو به من لُجَّة بحور الظلمات ، ويترقى به في درجات الفضائل والكرامات، وينال به أعلى المقامات، فقد بيَّن فضل الصبر والجزاء عليه بأسلوب مشوق ذي ظلال وإيحاءات كما سيأتي بيانه.

وأول الأحاديث النبوية الشريفة التي تعرضت لتعريف الصبر، أو تعرضت لوصفه والحكم عليه هو ما ورد عنه ﷺ من قوله : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ –أَوْ تَمْلَأُ– مَا بَيْنَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا » (١)

فقد ورد قوله ﷺ (الصبر ضياء) في جملة خبرية مثبتة اسمية ، موجزة ، مما يفيد الدلالة على تأكيد محتواها وكأنها مسلمة لا يرقى إليها شك، وكون الجملة خبرية اسمية مما يدل على تأكيد محتواها إذا ما قصد المتكلم إلى معنى التأكيد على ما قرره البلاغيون من أن اسمية الجملة تفيد التوكيد عند قصد المتكلم أو عند انضمام مؤكد آخر يقول الدسوقي : « إن اسمية الجملة ليست للتأكيد مطلقا، بل إذا اعتبرت مؤكدا بأن قصد التأكيد بها... وإن تأكيدها ليس على سبيل الاستقلال، بل على سبيل التبعية، فإن كان هناك مؤكد آخر جعلت اسمية الجملة من المؤكدات، وإلا فلا » (٢)

فإذا ما اعتبرنا هذا المؤكد (اسمية الجملة)، فإن الكلام يكون من الضرب الطلبي الذي يتطلع فيه المتلقي إلى الخبر ويستشرفه، وإلا فهو من الضرب الابتدائي الذي يخاطب به خالي الذهن.

وعلى كلا الوجهين فإن هذا الخبر حقيقة ينطق بها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى وهو على يقين منها، وكون الصحابة متطلعين إلى ما يلقيه إليهم النبي ﷺ فتلك حالهم دوما، ولذا فإنني أجد اعتبار اسمية الجملة من المؤكدات قد كان مقصوداً .

هذا بالإضافة إلى أن التعبير بالجملة الاسمية قد دل على ثبات الأمر ودوامه فحقيقة كون الصبر ضياءً حقيقة ثابتة وباقية إلى يوم القيامة ومعلوم الفرق بين التعبير بالجملة الاسمية والتعبير بالجملة الفعلية يقول الرازي :

(١) صحيح مسلم تحـ محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، حديث رقم ٢٢٣.

(٢) حاشية الدسوقي تحـ عبد الحميد هنداوي، جـ١ ص ٣٨٨، المكتبة العصرية بيروت.

« الاسم، له دلالة على الحقيقة دون زمانها، فإذا قلت: "زيد منطلق" لم يفد إلا إسناد الانطلاق إلى زيد. وأما الفعل، فله دلالة على الحقيقة وزمانها. فإذا قلت: "انطلق زيد" أفاد ثبوت الانطلاق لزيد في زمان معين، وكل ما كان زمانيًا فهو متغير، والتغير، مشعر بالتجدد.

فإن كان الغرض من الإخبار الإثبات المطلق غير المُشعر بزمان وجب أن يكون الإخبار بالاسم، كقوله تعالى: (وكلبُهُمْ باسطٌ ذِراعَيْه بالوصيد) [الكهف:١٨]. لأنه ليس الغرض إلا إثبات البسط للكلب. فأما تعريف زمان ذلك فغير مقصود.

وأما إذا كان الغرض من الإخبار به الإشعار بزمان ذلك الثبوت فالصالح له، هو الفعل. كقوله تعالى: (هل مِنْ خالقٍ غَيرُ اللهِ يرزُقُكُمْ منَ السَّماءِ والأرضِ) [فاطر:٣٥] فإن تمام المقصود، لا يحصل بمجرد كونه معطِيًا للرزق، بل بكونه معطِيًا للرزق في كل حين وأوان » [(١)] .

ومن دقة التعبير النبوي توظيفه للتشبيه الموجز في هذه الجملة حيث شبه الصبر بالضياء في كونه قارباً للنجاة ينجو به المسلم من ظلمة ولجة البلاء، كما يكون الضياء منجياً من براثن الظلماء.

وقد جاء التشبيه مؤكداً بحذف أداته، ومجملاً بحذف وجه الشبه مما أدى إلى شدة الالتحام والانصهار بين الطرفين فكأنهما شيء واحد، ومجيئ التشبيه على هذه الحال يسميه البلاغيون بالتشبيه البليغ وذلك « حين تزداد صفات الاتحاد بين المشبه والمشبه به، فتتخلص الصورة من كل شيء يشعرك بأن هناك فروقا بين الطرفين، فتجد الصورة تكاد تلامس باب الاستعارة، وتجد الصورة قد

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي تحـ الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلي ص ٧٩ وما بعدها بتصرف، دار صادر بيروت، ط ١، ٢٠٠٤ م.

احتلت أولى درجات الاتحاد بين الطرفين، فلا تجد أداة رابطة، كيف ولا فرق بين المشبه والمشبه به؟، ولا تجد وجه شبه بين الطرفين مذكورا، كيف والأول عين الثاني؟، ومن هنا تعلو المشابهة حتى تصل إلى عتبات الاتحاد بين المشبه والمشبه به...، وهذا الحذف إنما هو تخلص من عوامل البعد بين الطرفين » [١]

وهذه الجملة المكونة من مبتدأ معرفة وخبر نكرة تشبيه على الأصح كما ذكر الخطيب القزويني حيث قال : « فاسم المشبه به إن كان خبرا، أو في حكم الخبر –كخبر "كان وإن"، والمفعول الثاني لباب "علمت" والحال– فالأصح أنه يسمى تشبيها، وأن الاسم فيه لا يسمى استعارة؛ لأن الاسم إذا وقع هذه المواقع فالكلام موضوع لإثبات معناه لما يعتمد عليه، أو نفيه عنه؛ فإذا قلت: "زيد أسد"، فقد وضعت كلامك في الظاهر لإثبات معنى الأسد لزيد، وإذا امتنع إثبات ذلك له على الحقيقة، كان لإثبات شبه من الأسد له، فيكون اجتلابه لإثبات التشبيه » [٢]

وقد وقع لفظ (ضياء) خبراً عن الصبر ويمتنع كون الصبر ضياءً حقيقياً لكونه أمراً معنوياً فوجب التشبيه حينئذ.

وقد كان المشبه به في هذا التشبيه أمراً محسوساً مستمداً من البيئة الخارجية الطبيعية التي تتسم بالدوام والثبوت إلى قيام الساعة مما يؤكد معنى ثبوت هذه الحقيقة وديمومتها.

« وقد نبه البلاغيون إلى أن صور التشبيه حينما تُستَمد من عناصر كونية أو نفسية عامة يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين، كالتشبيه بالشمس والبدر والجبال والأنهار، والفجر، والمطر، والرعد، والبرق، وأحوال

(١) ينظر الوجوه الحسان في علم البيان د. سعيد جمعة ص ١٢٢ بتصرف.

(٢) ينظر الإيضاح بتعليق البغية جـ ٣ صـ٩٣ بتصرف، وينظر أسرار البلاغة تحـ شاكر ص٣٢٦ وما بعدها مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة .

الخوف والأمن، والغضب والرضا، والقوة والضعف، وما شابه ذلك مما هو شركة بين الناس والأمم يكون هذا الاستمداد من هذه العناصر أحفظ لبقائها وحيويتها، وتأثيرها في أجيال الناس والأمم » (١)

ومن دقة التعبير النبوي أيضاً ورود المسند في هذه الجملة نكرة، حتى يتسع المجال للحكم على الصبر بكونه ضياءً وبكونه غير ذلك من أمور ترتقي به وتجتذب النفوس إليه.

وقد قرر البلاغيون أن المسند يأتي نكرة لأغراض منها عدم إرادة الحصر، أو العهد، ومنها كذلك إرادة التعظيم فقال الخطيب: « وأما تنكيره فإما لإرادة عدم الحصر والعهد، كقولك: زيدٌ كاتبٌ، وعمروٌ شاعرٌ. وإما للتنبيه على ارتفاع شأنه أو انحطاطه، كقوله تعالى: (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) أي هدى لا يُكْتَنَه كُنْهُهُ » (٢)

فقد جاء المشبه به في هذه الجملة نكرةً، لإفادة عدم الحصر، ولإفادة التعظيم كذلك، خصوصا أن المقام مقام إعلاء من شأن المسند إليه المشبه والتنويه بفضائله.

وقد جاءت جملة (الصبر ضياء) جملة موجزة جدا ولعل السر في إيجازها الرغبة في تأهيلها للحفظ ومن ثم التأثير في نفس المتلقي.

وقد كان التعبير النبوي دقيقاً جدا حينما شبه الصبر بالضياء ولم يشبهه بالنور مثلا مثلما كان الحال مع الصلاة حيث شبهت بالنور في قوله (الصلاة نور والصبر ضياء)، وذلك لأن الضياء غالبا ما يرتبط بالحرارة مع كونه أقوى من النور ولأن الصبر يحتاج إلى مجاهدة فقد اختص بالضياء الذي هو الأقوى.

(١) ينظر التصوير البياني لأبي موسى ص ١٥٨ وما بعدها بتصرف، مكتبة وهبة، ط ٣، ١٩٩٣ م.

(٢) ينظر الإيضاح تحـ خفاجي، ص ١٨٨، دار الكتاب اللبناني، ط ٦، ١٩٨٥ م.

يقول ابن رجب الحنبلي: « وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ "،... فَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ أَنْوَارٌ كُلُّهَا، لَكِنَّ مِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ النُّورِ، فَالصَّلَاةُ نُورٌ مُطْلَقٌ،...وَأَمَّا الصَّبْرُ فَإِنَّهُ ضِيَاءٌ، وَالضِّيَاءُ: هُوَ النُّورُ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ نَوْعُ حَرَارَةٍ وَإِحْرَاقٍ كَضِيَاءِ الشَّمْسِ بِخِلَافِ الْقَمَرِ، فَإِنَّهُ نُورٌ مَحْضٌ، فِيهِ إِشْرَاقٌ بِغَيْرِ إِحْرَاقٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) [يونس: ٥] وَمِنْ هُنَا وَصَفَ اللَّهُ شَرِيعَةَ مُوسَى بِأَنَّهَا ضِيَاءٌ، كَمَا قَالَ: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ) [الأنبياء: ٤٨]

وَإِنْ كَانَ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ نُورًا كَمَا قَالَ: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) [المائدة: ٤٤]، وَلَكِنَّ الْغَالِبَ عَلَى شَرِيعَتِهِمِ الضِّيَاءُ لِمَا فِيهَا مِنَ الْآصَارِ وَالْأَغْلَالِ وَالْأَثْقَالِ. وَوَصَفَ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهَا نُورٌ لِمَا فِيهَا مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) [المائدة:١٥] ... وَلَمَّا كَانَ الصَّبْرُ شَاقًّا عَلَى النُّفُوسِ، يَحْتَاجُ إِلَى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَحَبْسِهَا وَكَفِّهَا عَمَّا تَهْوَاهُ، كَانَ ضِيَاءً » [(١)]

ولم يشبه الصبر بالضوء فلم يقل: والصبر ضوء، وذلك، ليفتح المجال لاحتمال كون لفظ ضياء جمعاً للفظ ضوء وقد أشار الشيخ الشعراوي إلى هذا [(٢)]

وتطمئن النفس إلى هذا التأويل وذلك لأن الصبر ليس ضوءً واحدا في موقف واحد، بل ضياء في مواقف متعددة.

وهكذا يتبين أن النبي ﷺ قد عرَّف الصبر وحكم عليه بكونه ضياءً في أسلوب موجز بلغ الغاية في الدقة والبراعة والإيحاء.

(١) ينظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، تحـ شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، جـ ٢ ص ٢١ وما بعدها بتصرف شديد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٧، ٢٠٠١ م.

(٢) ينظر تفسير الشعراوي جـ ٩ ص ٥٧٣٨، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م.

وفي حديث آخر جعل الصبر الذي يُعتَدُّ به ويؤجر عليه، هو ذلك الذي يقع عند ابتداء وقوع المصيبة، فقد روي عنه ﷺ « عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: **اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي** قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: **إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى** » (١)

فقد أمر الرسول ﷺ هذه المرأة الباكية عند القبر بالتقوى والصبر، فكان أمره لها بقوله (اتق الله) توطئة وتهيئة لأمرها بالصبر لكونه مترتباً على التقوى، ولكون التقوى مستلزمة له ولغيره من الفضائل.

يقول الطيبي : « (اتقي الله) توطئة لقوله: (واصبري) كأنه قيل: لا تجزعي وخافي غضب الله، واصبري حتى تثابي » (٢)

وفي كلا الأمرين نصح وإرشاد منه ﷺ لهذه المرأة ولمن كان على شاكلتها وابتلي بمصيبتها، وفي هذا النصح والإرشاد دلالة على رفق النبي وحرصه على صالح أمته فلا يرضى لهم الجمع بين المصيبة وفقد الأجر.

وكان من بلاغة هذه المرأة أنها بادرت بتقديم عذرها في جملة فعلية منفية بـ (لم) إشارة منها إلى ما كان عند القبر، فلم تقل اعذرني يا رسول الله أو اصفح عني أو غير ذلك بل قدمت العذر مما يلزم عنه طلب العفو.

وجاء رده ﷺ بالغاً الغاية في البلاغة والإيجاز، فلم يقل عفوت عنك أو لا عليك أو غير ذلك، بل ترك جوابها بما تترقب ونبهها إلى ما هو الأولى بعنايتها، فقال (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، وهذا ما يُعرف عند البلاغيين

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز ، باب زيارة القبور ، حديث رقم ١٢٨٣.

(٢) ينظر الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ، تحـ د. عبد الحميد هنداوي ، جـ ٤ ص ١٤١٩، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، الرياض ، ط ١، ١٩٩٧ م.

بأسلوب الحكيم وهو « تلقي المخاطِب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، أو "تلقي" السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيها على أنه الأولى بحاله، أو المهم له » (١)

فنبهها ﷺ إلى هذه الحقيقة من أن « الصبر المحمود المأجور عليه صاحبُه هو ما كان عند مفاجأة المصيبة وهي الصدمة الأولى دون ما بعدها، فإنه إذا طالت الأيام عليها وقع السلو، وصار الصبر حينئذ طبعا فلم يكن للأجر موضع » (٢)

وقد وردت هذه الحقيقة في أسلوب القصر بـ (إنما) في هذه الرواية وفي رواية أخرى قد وردت مطلقة من غير قصر فيما روي « عن أنس بن مالك عن النبي أنه قال: الصبر عند الصدمة الأولى » (٣)

فلعل هذه الحقيقة قد شاعت بين الصحابة وأخبرهم بها النبي في غير مرة، ولذا فقد جاء القصر بـ (إنما) التي تأتي في الأمر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته (٤)

هذا بالإضافة إلى أن المقام مقام تعليم، ووعظ، وإرشاد، فناسب أن تُستعمل فيه (إنما) التي تدخل على المعاني المأنوسة فهي « أداة رقيقة هامسة، لا تنزعج النفوس لما دخلت عليه، ولا ترفض ما جاء في وعائها... (أما) النفي

(١) الإيضاح بتعليق البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، جـ ص ١٢٠، مكتبة الآداب ، ١٩٩٩ م.

(٢) أعلام الحديث شرح صحيح البخاري للخطابي، تحـ محمد بن سعد آل سعود ،جـ ١ ص ٦٩٠، جامعة أم القرى مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، ط ١، ١٩٨٨م

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الصبر عند الصدمة الأولى ، حديث رقم ١٣٠٢

(٤) ينظر دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحـ محمود شاكر ، ص ٣٣٠ ، مطبعة المدني بالقاهرة دار المدني بجدة، ط ٣، ١٩٩٢ م.

والاستثناء فله قعقعة وجلبة، والسياق هنا لا يتحمل هذه القعقعة، لأنه سياق ملاطفة ومعاتبة، ولفت خفيف إلى المعاني الحلوة الناعمة » [١]

ومن بلاغة التعبير النبوي اصطفاؤه للفظ (الصدمة)، واستعارته لأثر المصيبة فلم يقل : إنما الصبر عند ابتداء وقوع المصيبة، وذلك لكون هذه اللفظة (الصدمة) تدل على شدة وقع المصيبة على النفس دلالة محسوسة مستفادة من الاستعارة التصريحية حيث شبه وقوع المصيبة على القلب بالصدم وأصله « ضَرْبُ الشَّيْءِ الصُّلْبِ بِمِثْلِهِ فَاسْتُعِيرَ لِلْمُصِيبَةِ الْوَارِدَةِ عَلَى الْقَلْبِ» [٢] بجامع الشدة في كلٍ.

وقد أفادت هذه الصورة الاستعارية تجسيم أثر المصيبة على القلب فأبرزته في صورة محسوسة حتى إننا لنسمع قعقعةً وجلبة جراء ارتطام المصيبة بقلب المسلم، ونستشعر زلزلة وألما في الأعضاء نتيجة لهذا، الارتطام الشديد.

وقد قصر الصبر الكامل أو المعتد به على ما يكون عند ابتداء حلول المصيبة، قصراً ادعائياً ليفيد أن ما عدا ذلك ليس بصبر معتدٍ به أو ليس صبراً كاملاً يستلزم الأجر والمثوبة.

فإذا كان الحديث السابق قد حكم على الصبر بكونه ضياءً، فإن هذا الحديث قد خصص له وقتاً إن جاوزه نقص قدره أو ذهبت فائدته وغدا سلواً، وهو وقت ابتداء المصيبة وفجأتها .

وقد سلك الحديثان لبيان هذه الحقائق التي تميط اللثام عن ماهية الصبر صنوفاً شتى من الأساليب البلاغية التي تغرسها في النفوس غرساً حتى تؤتي ثمارها وقد مر بيانها مفصلةً.

---

(١) دلالات التراكيب لأبي موسى ص١٤٨، مكتبة وهبة القاهرة، ط٢، ١٩٨٧ م.

(٢) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس، تحـ عبد السلام هارون ، مادة صدم ، دار الفكر ، ١٩٧٩ م، وينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ،جـ ٣ ص ١٤٩، دار المعرفة بيروت ، ١٣٧٩ هـ.

المبحث الثاني

بلاغة التعبير عن فضل الصبر والجزاء عليه

عُنِي الحديث النبوي الشريف ببيان فضل الصبر، وبيان الجزاء عليه، ، فذكر أن الصبر خير للمؤمن بل إنه خير العطاء الذي يُعطاه كل أحد، وأن الصبر يكفر الذنوب ويكون سبباً لدخول الجنة، وقد صيغت هذه الحقائق جميعا في أسلوب راق، تسربل بعديد من وسائل التوكيد التي تقطع بيقينيتها وتحقق وقوعها، كما برز في أبهى حلة وأعذب عبارة ليتغلغل في نفس المتلقي بغية التأثير فيه وإقناعه باعتناق الصبر واتخاذه قارباً ينجي من مهالك الحياة وظلمات الشدائد.

ومن بين الأحاديث التي حكمت على الصبر بالخيرية ما روي عن صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** » [1]

يفتتح هذا الحديث بجملة مشوّقة تجتذب السامعين وتجعلهم في حال الاستشراف لما يُلقى إليهم من الخبر، وهي قوله ﷺ (عجباً لأمر المؤمن) والأصل أعجب عجباً فعدل عن الرفع إلى النصب للثبات [2] والدلالة على ديمومة هذا الحكم إلى قيام الساعة.

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير ، حديث رقم ٢٩٩٩.

(٢) ينظر فيض القدير شرح الجامع الصغير زين الدين المناوي ، جـ ٤ ص ٣٠٢، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط١، ١٣٥٦ هـ.

وجاءت الجملة التالية مبينة لجملة التعجب فافتتحت بـ (إن) المؤكدة لكون المخاطب بها متطلباً ومستشرفاً ومنتظراً لتعليل العجب وكانت بمنزلة جواب لسؤال أثارته الجملة السابقة عليها، فوجب الفصل بينهما لشبه كمال الاتصال [١]

« وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يُصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك ويسمى الفصل لذلك استئنافا، وكذلك الجملة الثانية أيضا تسمى استئنافا » [٢]

ثم يأتي التوكيد اللفظي ب (كل) في قوله (إن أمره كله خير)، وهذا التوكيد الدال على عموم خيرية جميع أحوال المؤمن هو مناط العجب .

وفي بعض النسخ جاءت العبارة هكذا (إن أمره كله له خير) [٣]، فقُدِّم الجار والمجرور ليفيد الاهتمام والاختصاص حيث قصر الخيرية في جميع الأحوال على كونها للمؤمن دون غيره .

ويؤكد هذا المعنى القصر بالنفي والاستثناء الوارد في العبارة الآتية (وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ)، فقد قصر الخيرية في جميع الأمور على كونها للمؤمن دون غيره قصراً قاطعاً حاسماً أوثر له طريق النفي والاستثناء ليدل على تأكيد تلك الحقيقة ولينزع من نفوس المتلقين كل شك أو مخالفة.

---

(١) تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال اقتضته الأولى؛ فتنزل منزلته، فتُفصَل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال ينظر الإيضاح بتعليق البغية جـ ٢ ص ٦٨

(٢) الإيضاح بتعليق البغية جـ ٢ ص ٦٨.

(٣) ينظر البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ، للولوي ، ٢٧٣، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٦ هـ.

وقد قال (إلا للمؤمن) وكان من الممكن أن يقول إلا له فيعود الضمير على لفظ المؤمن المتعجب من أمره في أول جملة من الحديث، ولكن التعبير النبوي آثر وضع المظهر موضع المضمر ليبين سبب هذه الخاصية (خيرية جميع الأحوال) وأنه الإيمان لا غير يقول الطيبي: « قوله: (إلا للمؤمن) مظهر وقع موقع المضمر ليشعر بالعلية. » (١)

وقد أشار إلى تلك الكرامة التي يحظى بها المؤمن دون غيره بقوله (وليس ذاك) إشارة للبعيد ليدل على عظمتها ورفعة شأنها.

وما زالت العبارة (إن أمره كله خير) مبهمةً ولذا فقد جاء قوله : (إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)، لتبين هذا الإبهام، ولتفصِّل ما أُجمل من خيرية جميع الأحوال للمؤمن، وهذا النمط من تركيب الكلام يعمل على حبكه حيث ترتبط أجزاؤه ارتباطاً معنويا وثيقاً وهذا الحبك يعمل على الاستمرارية المتحققة في عالم النص وهي الاستمرارية الدلالية المتجلية في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بينها. (٢)

كما أنه يشد المتلقي ويجعله في حال ترقب وانتباه حتى يتم الكلام.

ومما يؤكد تلك الخيرية العامة الحاصلة للمؤمن في جميع أحواله؛ الطباق بين لفظي سراء وضراء، مع تنكيرهما، لأن التنكير يفيد أن القليل منهما يكفي لاستلزام الخير، ولأن الطباق قد جعلهما حالين مختلفين فجاء العطف عليهما بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، ليجمع بينهما في ترتب الخير على كليهما.

ثم أسلوب الشرط الذي تسربلت به العبارتان والذي أفاد الارتباط بين فعل الشرط أصاب وبين الجوابين شكر وصبر ارتباطاً وثيقاً وعاجلاً.

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ، جـ ١٠ ص ٣٣٣٤.

(٢) ينظر في البلاغة العربية و الأسلوبيات اللسانية سعد مصلوح ص ٢٢٨ بتصرف ، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٣م.

ثم ذلك التناسق الصوتي العجيب في أوزان الكلمات الواردة فيهما فوزن سراء فعلاء وكذلك وزن ضراء، ووزن شكر فعل وكذلك وزن صبر، وهذا يدل على التسوية بين هذه الأمور جميعا في ترتب الخير عليها وفعل الشرط واحد وهو أصابته والمعطوف على الجوابين واحد وهو فكان خيرا له، كل هذه الأمور قد تضافرت لتدل على حقيقة واحدة وهي الواردة مجملة مبهمة في أول الحديث في قوله (إن أمره كله خير).

والتناسق الصوتي أمارة من أمارات البراعة البيانية فإن « طاقات اللغة العربية غير محدودة لمن يستطيع تفجيرها فتأتي كلماته مُتَخيَّرة، وجُمَله متوازنة، وتراكيبه منسجمة، وأصواته مع معانيه متفاعلة » (١)

وقد تجلى هذا في أبهى صوره في الحديث النبوي الشريف عموماً، وفي هذا النص الذي نحن بصدده خصوصاً، حيث اتخذ البيان النبوي من هذا التناسق وسيلة للتأثير في المتلقين على اختلاف مشاربهم وذلك لأن « تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خُلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف. » (٢)

ثم إن التكرار قد تجلى في مظهر آخر غير تكرار الأوزان حيث تكررت بعض التراكيب وبعض الألفاظ فجاء لفظ (المؤمن) مرتين (عجباً لأمر المؤمن)، (وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن) وجاء لفظ (خير) ثلاث مرات (إن أمره كله خير)، و(فكان خيرا له) تكرر هذا التركيب مرتين مشتملاً على لفظ (خير)

(١) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم د. محمد إبراهيم شادي ، ص ٧ ، دار الرسالة، ط١، ١٩٨٨م.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ١٤٩،دار الكتاب العربي بيروت، ط٨، ٢٠٠٥ م.

ولعل السر وراء تكرار لفظي (مؤمن، وخير) هو بيان أن تلك الخيرية مترتبة على ذلك الإيمان.

كما كان تكرار الألفاظ والقوالب البنائية دالاً على التسوية بين السراء والضراء وبين الشكر والصبر في استلزام الخير واستحقاقه.

وإذا كان التعبير النبوي قد عمد إلى الإبهام ثم البيان، فإن النص قد انتهى وما زال مبهماً إبهاماً مقصوداً حتى يترك المجال لخيال المتلقي فيذهب في التأويل كل مذهب وذلك أنه عبَّر عن جزاء الشكر وجزاء الصبر بقوله (فكان خيراً له) فلم يحدد تلك الخيرية أهي مغفرة للذنوب أو الظفر بدخول الجنة– كما ورد في غيره من الأحاديث– أم أنها العيش في طمأنينة واستقرار وراحة بال، كل هذه الأمور متضمنة في لفظ (خير)، ولذا فقد آثره التعبير النبوي في هذا الحديث ليبين أن المطلوب من المسلم هو الإيمان فقط ليستحق الخير العميم الذي يتجلى في شتى الأمور المحمودة المرغوبة للنفوس.

ومن الأحاديث التي وردت لتحكم على الصبر بالخيرية وبالأفضلية على غيره من صنوف العطاء ما ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: « **مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ** » [1]

يغلب الشرط على جمل هذا الحديث، ويتلوه النفي، ويتضافران لبيان خيرية الصبر على غيره من العطاءات، وذلك أن الجمل الشرطية (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ) وفي رواية (يتصبر

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر ، حديث رقم ١٠٥٣.

يصبره الله) [١] تمثل درجات للارتقاء في المكارم أولها الاستعفاف وثانيتها الاستغناء وثالثتها الصبر، فدرجة الصبر هي أعلى تلك الدرجات، ولذا فقد أتبعت بذكر جملة منفية نفياً حاسماً مبالغاً فيه بتوظيف (مِن) الواقعة في سياق النفي، الدالة على تأكيد عمومه [٢] وببناء الفعل للمجهول إفادةً للعموم، وباصطفاء (ما) أداة للنفي، وبوضع اسم المصدر (عطاء) موضع اسم المفعول (مُعطى) إفادة للعموم كذلك، وبذكر أفعل التفضيل (خير) المرفوع خبراً لمبتدأ محذوف (هو خير) والجملة في محل جر نعت لعطاء، (وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ) لتأكيد معنى خيرية الصبر وأفضليته على غيره يقول الطيبي: « قوله: (يعفه الله) يريد أن من طلب من نفسه العفة عن السؤال، ولم يظهر الاستغناء يعفه الله، أي يصيره عفيفًا. ومن ترقى من هذه المرتبة إلى ما هو أعلى من إظهار الاستغناء من الخلق، لكن إن أعطي شيئًا لم يرده، فيملأ الله قلبه غنى، ومن فاز بالقدح المعلى وتصبر، وإن أعطي لم يقبل فهو هو » [٣]

وقد أفادت الجمل الشرطية الدلالة على أن الله إذا علم من عبده رغبة مخلصة في الاستعفاف والاستغناء والتصبر، فإنه يوفقه إليها، وذلك للارتباط الحاصل بين الشرط وجوابه، فقد اشتملت أفعال الشرط على ما يدل على رغبة المسلم فيها من السين والتاء الدالتين على الطلب في (يستعفف ويستغن)، ومن صيغة (التَفَعُّل) في (يتصبر).

---

(١) ينظر صحيح البخاري باب الاستعفاف عن المسألة ، حديث رقم ١٤٦٩.

(٢) ينظر الكتاب لسيبويه ، تحـ عبد السلام هارون ، جـ ٢ ص ٣١٦، مكتبة الخانجي القاهرة ، طـ٣، ١٩٨٨ م، وينظر المقاصد الشافية للشاطبي جـ ٣ ص ٥٩٦،معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي جامعة أم القرى مكة المكرمة،ط١، ٢٠٠٧ م .

(٣) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي جـ ٥ ص ١٥١٥.

وقد دلت رواية (ومن يتصبر يصبره الله) على أن الصبر ليس أمراً هيناً فهو يحتاج إلى معالجة شديدة ومجاهدة للنفس، يستفاد هذا من مادة (التَفَعُّل) الدالة على التكلف والمشقة [1]، وتؤيد هذه الصيغة أيضاً كون الصبر أعلى درجات المكارم، إذ لا يصل إليه إلا الأقوياء في الدين ولذا فقد أُتبِعَت بجملة تجعله أفضل ما يعطاه إنسان.

وهكذا يتبين أن هذا الحديث ينضم إلى سابقه في بيان خيرية الصبر، إلا أنه قد زاد عليه أن جعله أعلى مراتب المكارم وأنه خير صنوف العطاءات، وقد سلك للدلالة على هذا المعنى أسلوب الشرط، وأسلوب النفي وغيرها من الأساليب التي تضافرت لبناء المعنى وصياغته أروع صياغة على النحو المبين آنفاً.

ومن الأحاديث التي تجعل صنوف البلاء التي تتعاور المسلم، خيراً أراده الله به، وذلك في أسلوب شرطي قاطع وحاسم ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ. » [2]

« قوله (يصب) قُرِئَت بوجهين: بفتح الصاد (يُصَب) وكسرها (يُصِب) وكلاهما صحيح، أما (يُصِب منه) فالمعنى أن الله يقدر عليه المصائب حتى يبتليه بها: أيصبر أم يضجر. وأما (يُصَب منه) فهي أعم، أي: يصاب من الله ومن غيره. » [3]

(١) ينظر الكتاب لسيبويه ، جـ ٤ ص ٧١، وينظر شرح التسهيل لابن مالك، تحـ د. عبد الرحمن السيد ود. محمد المختون، جـ ٣ ص ٤٥٢، دار هجر ، ط١، ١٩٩٠ م.

(٢) صحيح البخاري ، باب ما جاء في كفارة المرض ، حديث رقم ٥٦٤٥.

(٣) شرح رياض الصالحين للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، جـ ١ ص ٢٤٥، دار الوطن للنشر الرياض ، ١٤٢٦ هـ.

وقد رجح الطيبي رواية الفتح بالبناء للمجهول، لدلالتها على التأدب مع الله [١]، وأؤيده في ذلك، لما ذكر، ولكونها أعم.

وهذه العبارة عبارة موجزة جدا ولا يستقيم معناها إلا بتقدير محذوف، لأن إرادة الخير لا تكون إلا مع الصبر كما شهد بذلك ما مر من أحاديث، فتقدير الكلام حينئذ من يرد الله به خيراً يصب منه فيصبر فيجازيه على صبره أوفى الجزاء وأحسنه. ولعل التقدير من يرد الله به خيراً يبتليه بالمصائب، ليثيبه عليها إذا صبر. [٢]

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: « أَيْ يُوَصِّلُ إِلَيْهِ الْمَصَائِبَ لِيُطَهِّرَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَيَرْفَعَ دَرَجَتَهُ، وَهِيَ اسْمٌ لِكُلِّ مَكْرُوهٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الِابْتِلَاءَ بِالْمَصَائِبِ طِبٌّ إِلَهِيٌّ يُدَاوَى بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ أَمْرَاضِ الذُّنُوبِ الْمُهْلِكَةِ » [٣]

وجاء لفظ (خيراً) نكرةً للدلالة على العموم أي جميع صنوف الخير، أو لإرادة التعظيم أي خيراً عظيماً.

وإذا كان هذا الحديث – مع سابقيه – قد جعل الصبر خيراً مبهماً للمسلم ، فإن هناك أحاديث أخرى قد بينت هذا الإبهام، مما يقضي بأن الأحاديث الشريفة يفسر بعضها بعضاً وتتكامل فيما بينها فلا تنافر ولا تعارض .

وكل من المنهجين: منهج الإبهام، ومنهج البيان والتوضيح يراعي الحالات النفسية والعقلية والطباع البشرية للمتلقين، فمنهم من يكتفي بالإجمال والإبهام ويترك لخياله العنان ليطوِّف في رياض التأويلات وليحوِّم في سماء التفسيرات.

(١) ينظر الكاشف عن حقائق السنن جـ ٤ ص ١٣٣٨.

(٢) ينظر شرح موطأ مالك للزرقاني ، تحـ طه عبد الرؤوف سعد ، جـ ٤ ص ٥١٥ بتصرف، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣ م.

(٣) السابق نفسه.

ومنهم من لا يقنع إلا بالتحديد وبالبيان والتفصيل، ولذا فقد نهج البيان النبوي كلا المنهجين، ليصل إلى جميع المتلقين، وليتغلغل في نفوسهم بغية التأثير فيهم.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي حددت ووضحت الجزاء على الصبر في أسلوب مؤكد يعتمد على القصر بطريق النفي والاستثناء متضافراً مع الجناس ومراعاة النظير وغيره من الأساليب ما ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ** » [(١)]

فهذا الحديث يقوم على قالب واحد وهو قالب القصر بالنفي والاستثناء الدال على التأكيد والحسم حيث افتتح ب (ما) النافية الداخلة على الفعل المضارع (يصيب) الدال على التجدد والحدوث الذي يقع على لفظ (المسلم) المفعول به المقدم للدلالة على الاهتمام بشأنه والعناية بأمره، ثم تأتي (مِن) الدالة على الاستغراق المؤكدة للنفي، داخلةً على لفظ (نصب)، ثم يُعطف عليه بالواو مع تكرار النفي لتأكيده عدة كلمات (وصب – هم – حزن –أذى– غم) ثم تأتي (حتى) الدالة على بلوغ الغاية في قلة وضعف وهوان ما يصيب المسلم ولذا أُتبِعَت بجملة (الشوكة يشاكها) على خلاف بين العلماء في كونها ابتدائية أو لانتهاء الغاية [(٢)]، ثم تأتي (إلا) الاستثنائية لتُتبَع بجملة (كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

(١) صحيح البخاري ، باب ما جاء في كفارة المرض ، حديث رقم ٥٦٤١.

(٢) فبرفع الشوكة تكون حتى ابتدائية، والجملة بعد الشوكة خبرها وبالجر فحتى عاطفة أو بمعنى إلى فما بعدها حال، وقيل بنصب الشوكة مفعولاً لفعل مقدر حتى يجد الشوكة... ينظر مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري ، جـ ٥ ص ٢٢٧، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند، ط ٣، ١٩٨٤ م.

خَطَايَاهُ) فأفاد القصر ههنا قصر جميع ما يصيب الإنسان على كونه مُكَفِّراً لبعض ذنوبه قصراً إضافياً، قصر موصوف على صفة.

وقد أوثر له طريق النفي والاستثناء لما يمتاز به من غلبته في المواقف الحاسمة يقول الدكتور أبو موسى عن هذه الأداة إنها : « ذات نبرة حادة ، تشير دائما إلى نبض أعلى وانفعال بالحقيقة أقوى » (١)

وجاء فن مراعاة النظير حيث جمع بين متناسبات (٢)، فجمع بين نصب ووصب وهم وغم وحزن وأذى فكلها أمراض بدنية أو نفسية داخلية أو خارجية « (ما يصيب المسلم من نصب) تعب (ولا وصب) مرض أو مرض دائم ملازم (ولا هم) بفتح الهاء وتشديد الميم (ولا حزن) بفتحتين ولغير أبي ذر ولا حزن بضم فسكون. قال في الفتح: هما من أمراض الباطن ولذلك ساغ عطفهما على الوصب... وقيل الهم يختص بما هو آت والحزن بما مضى (ولا أذى) يلحقه من تعدي الغير عليه (ولا غم) بالغين المعجمة وهو ما يضيق على القلب، وقيل: إن الهم ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به والحزن يحدث لفقد ما يشق على المرء فقده والغم كرب يحدث للقلب بسبب ما حصل » (٣)

كما جاء الجناس اللاحق (٤) بين (نصب ووصب)، والجناس المضارع (٥) بين (هم وغم) وقد تضافر مع مراعاة النظير في إفادة اجتماع هذه الأشياء المذكورة في كونها تؤدي إلى الغاية المرجوة من تكفير بعض الذنوب.

---

(١) ينظر دلالات التراكيب لأبي موسى ص ١٠٦ بتصرف مكتبة وهبة ، ط٢، ١٩٨٧م.

(٢) ينظر الإيضاح بتعليق البغية جـ ٤ ص ١٤.

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني جـ ٨ ص ٣٤٠ ، المطبعة الكبرى الأميرية مصر، ط ٧، ١٣٢٣ هـ.

(٤) ما يكون الحرفان المختلفان متقاربين ينظر الإيضاح بتعليق البغية جـ ٤ ص ٧٤.

(٥) ما يكون الحرفان المختلفان غير متقاربين ينظر السابق نفسه.

هذا مع ما للجناس من قدرة على التأثير فهو « من الحلى اللفظية والألوان البديعية التي لها تأثير بليغ، تجذب السامع، وتحدث في نفسه ميلا إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة، وتجعل العبارة على الأذن سهلة ومستساغة، فتجد من النفس القبول، وتتأثر به أي تأثير، وتقع من القلب أحسن موقع »[١]

وإذا كان تكفير الذنوب مترتباً على مجرَّد وقوع المصيبة من غير صبر عليها، وهو ظاهر الحديث كما قيل [٢]، وإن كنت لا أرجحه، فليس في الكلام حذف.

والذي تطمئن إليه النفس، هو تقدير محذوف في الكلام وهو فيصبر عليها إلا كفر الله بها من خطاياه، اعتماداً على نص الحديث السابق (وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) فالضراء تشمل كل ما ذُكِر في هذا الحديث من نصب ووصب وهم وحزن وأذى وغم، وقد صُرِّحَ هناك بترتب الصبر على إصابة الضراء، حتى يحصل له الخير الموعود به .

وكانت الضراء هناك مبهمةً وجاء تفصيلها في الحديث الذي معنا بالنصب والوصب وغيرها، وكان الجزاء هناك مبهماً بلفظ (خيراً له) وجاء هنا مُوضحاً بتكفير بعض الخطايا والذنوب، فشرط حصول الخير وتكفير الذنوب هو تحقق الصبر، والله أعلى وأعلم.

ويؤيده ما ذكره القرطبي من قوله: « ومقصود هذه الأحاديث: أن الأمراض والأحزان – وإن دقت – والمصائب – وإن قَلَّت – أُجِر المؤمن على جميعها، وكُفِّرَت عنه بذلك خطاياه حتى يمشي على الأرض وليست له

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم أ.د عبد الفتاح لاشين، ص ١٥٨، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩ م.

(٢) ينظر المنهل الحديث في شرح الحديث أ.د موسى شاهين ، جـ ٤ ص ١٢٧، دار المدار الإسلامي ، ط١، ٢٠٠٢ م.

خطيئة... لكن هذا كله إذا صبر المصاب واحتسب، وقال ما أمَر الله تعالى به في قوله: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ) فمن كان كذلك وصل إلى ما وعد الله به ورسوله من ذلك » [١]

ويشهد لهذا الرأي حديث (عطَاء بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: « **إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ** » فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا.) [٢]

حيث عُطِف جزاء الصبر عليه بالواو في قوله: (إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ)، وكان من الممكن أن يجيبها النبي ﷺ حينما قالت له : إني أُصْرَع، بقوله: أنت تصرعين فإن صرعك يكفر ذنوبك، هذا إذا لم يكن الصبر معتبراً في حصول الأجر، ولكنه ﷺ عطف جملة (ولك الجنة) على جواب الشرط (صبرت) بالواو التي تفيد مطلق الجمع ليدل على أن صبرها يستصحب دخول الجنة فهما مقترنان، وفيه دلالة على تحقق هذا الأجر (دخول الجنة) على الصبر، وليس على مجرد البلاء.

وقد أفاد العطف للتوسط بين الكمالين – حيث التفقت الجملتان خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى [٣] –، الدلالة على الجمع بين الصبر والجزاء عليه .

كما أفاد تقديم المسند شبه الجملة على المسند إليه في قوله: (ولك الجنة) تأكيد معنى حصول الجزاء وتحققه.

---

(١) المفهم للقرطبي جـ ٦ ص ٥٤٦.

(٢) صحيح البخاري ، باب فضل من يصرع من الريح، حديث رقم ٥٦٥٢.

(٣) ينظر الإيضاح بتعليق البغية جـ ٢ ص ٧٤.

وبهذا يكون هذا الحديث مفصِّلاً للإبهام الذي كان في حديث عجباً لأمر المؤمن، مراعياً لاختلاف طبائع المتلقين، مُلَبِّياً لتطلعاتهم، بغية التأثير في نفوسهم وحملهم على الإذعان لما يُلقى إليهم، والإتيان لما يؤمرون به ويُرشَدون إليه..

ولعل السر وراء العطف هناك بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب في قوله (وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)، والعطف ههنا بالواو الدالة على مطلق الجمع في قوله (إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ)، راجع إلى أن المقام هناك كان مقاماً عاماً يؤسس لقواعد وأصول يغلب عليه الإبهام والإجمال ، فكان حريصاً على بيان ترتب الخير على الصبر تَرَتُّباً عاجلا، وذلك عند إصابة الضراء التي جاءت عامة مبهمة أيضاً كما بيَّنْتُ آنفاً، فناسب أن يُعطَف هناك بالفاء.

وأما المقام هنا فمقام شكوى من المرأة، وبشرى من النبي ﷺ وتوجيه منه لها إلى ما فيه صالح دينها وأخراها، فناسب أن يُعطَف بالواو ليفيد الجمع بين الصبر والجزاء عليه جمعاً في العبارة يستحث المرأة المبتلاة على حسم قرارها في الواقع ، ولذا فقد قدم المسند (ولك) على المسند إليه (الجنة)، ليبعثها على ترجيح كفة الآخرة على الدنيا .

وقد آتت هذه الصياغة النبوية البليغة ثمارها بأن قالت المرأة بسرعة ومن غير تردد: (أَصبِرُ) وجاء في الحديث عبارة (فَقَالَتْ: أَصْبِرُ) فعُبِّر عن سرعة ردها بالفاء (فقالت) لما لها من دلالة على الترتيب والتعقيب.

هكذا يتبين أن الأحاديث النبوية الشريفة قد ذكرت فضل الصبر والجزاء عليه بشتى الأساليب التي تتغلغل في نفوس المخاطبين كالإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال والتناسق الصوتي الحاصل من اجتلاب التراكيب المتوازنة والألفاظ المتآلفة، والتقرير متآزراً مع التصوير وغير ذلك مما مر بيانه.

ومن بين الأحاديث النبوية الشريفة التي اتخذت من التصوير وسيلة ناجعة لإقناع المخاطب وحثِّه على الفعل، وذلك عند بيانها الجزاء على الصبر، وأنه

مُكَفِّرٌ للذنوب ما ورد عن عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: « **أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ** » قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: « **أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا** » (١)

أول ما يلفت النظر في هذا البيان النبوي، أنه قد اشتمل على أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، ذلك الأسلوب الذي شاع في كثير من الأحاديث التي عُنيت ببيان الجزاء على الصبر، والذي عللت لشيوعه بالرغبة في سوق الحقائق المتسربلة به في أسلوب محكم مؤكد .

ومن العجيب فيه أيضاً أنه كرر كثيرا من الألفاظ والأساليب التي مرت في حديث (مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ) كلفظ (المسلم) ولفظ (أذى)، ولفظ (شوكة) ولفظ (كَفَّرَ)، وأسلوب القصر وغير ذلك، إلا أنه كرر هذا كله في أسلوب موجز وكأنه إجمال لسابقه، مع زيادة في أمر آخر وهو التشبيه الذي ورد فيه ليس لمجرد تشبيه تكفير الذنوب عن المسلم المبتلى الصابر، بسقوط الورق الذابل عن الشجرة بسبب اشتداد الرياح، وإنما ليفيد عدة إيحاءات تُستَقى مما ورد في تركيبه من كلمات وذلك أنه قيل عن هذا التشبيه : « إن السيئات من ثمرات الأبدان والنفوس، فلما أصاب الأبدان التي أثمرت السوء من الألم ما شاركته فيه نفوسها عم أجزاءها، فكان كالعقوبة لمثمر السوء، فصار على نحو الشجرة التي إذا قلت المادة منها لما كانت تمده من الورق انتثر، فلما قلت مادة السيئات بما أصاب البدن من الألم انتثرت من الخطايا بلطف من الله

(١) صحيح البخاري باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، حديث رقم ٥٦٤٨.

سبحانه، وهذا مما ينبغي للعبد أن يتضاعف شكره لله تعالى عليه، لأنه يحط عنه خطاياه بغير عزم من المخطئ تطهيرًا منه لعباده. » [١]

وقال الطيبي عن هذا التشبيه: « شبه حالة المريض وإصابة المرض جسده، ثم محو السيئات عنه سريعًا بحالة الشجرة، وهبوب الرياح الخريفية، وتناثر الأوراق منها سريعًا، وتجردها عنها، فهو تشبيه تمثيلي لانتزاع الأمور المتوهمة في المشبه من المشبه به، فوجه التشبيه: الإزالة الكلية على سبيل السرعة، لا الكمال والنقصان، لأن إزالة الذنوب عن الإنسان سبب كماله، وإزالة الأوراق عن الشجرة سبب نقصانها. » [٢]

وأقول : إن الغرض من هذا التشبيه هو الإيماء إلى ما يكون عليه الإنسان بعد محو الذنوب –بسبب صبره على البلايا – من ابتدائه لحياة جديدة خالية من الأوزار والآثام فكأنه ميلاد جديد ينبغي لكل مسلم أن يغتنم تلك الفرصة التي يمنحها الله له فيتجنب التردي في مهاوي الخطايا والسيئات، يستفاد هذا من حال الشجرة التي تحط ورقها في وقت ما ثم ما تلبث أن تستعيد أوراقها ونضارتها في وقت آخر، فالذنوب التي اقترفها المسلم كانت أعمالاً فاسدة ينبغي التخلص منها، وكذلك الأوراق الذابلة للشجرة كانت شيئا فاسداً، وكما تسترد الشجرة أوراقها اليانعة النضرة في وقت آخر فينبغي على المسلم أن تثمر أعضاؤه من الأعمال ما كان صالحاً مقبولاً .

وكما أن المسلم يتلقى البلايا والمصائب بعزم صلب وصبر ومجاهدة، فكذلك الشجرة تستقبل الرياح العاتية بشموخ وصلابة فلا تنال منها سوى الفاسد الأوراق الذابلة .

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح لأبي المظفر عون الدين الشيباني ، تحـ فؤاد عبد المنعم ، جـ ٢ ص ٤١، دار الوطن ، ١٤١٧ هـ.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي جـ ٤ ص ١٣٣٩.

وكما أن الرياح تقتلع تلك الأوراق، فكذلك المصائب والصبر عليها يمحو الخطايا والذنوب من غير حول من الإنسان ومن غير حول من الشجرة.

هذا كله يستفاد من ذلك التشبيه التمثيلي الوارد في قوله ﷺ (كما تحط الشجرة ورقها)، وتشبيه التمثيل من الأساليب البلاغية التي ترفع من قدر الكلام، وتجتذب النفوس، وتؤثر أبلغ تأثير في المتلقي ولذا فقد قال عنه الإمام عبد القاهر : « واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً،... وإن كان وعظاً، كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل » (١)

وهذا ما نجده جلياً في التشبيه الوارد في الحديث الشريف مُصوِّراً لمحو الذنوب بسبب الصبر على البلايا بصورة حسية شديدة الإيحاء وثرية المعاني والظلال.

ولا غرو فإن التصوير في البيان النبوي قد كان « لوناً من ألوان الإبداع النبوي. جاء على أكمل تمامه وأبهى أصباغه وأورف ظلاله وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب في العربية. ..فجاء حديثه النبوي من البلاغة العالية في موضع تتطلع نحوه الأبصار، وتتقاصر دونه الأعناق فالصورة البلاغية في أدب محمد ﷺ ... في لبابها الصميم صور حية وإبداع ملهم مطبوع لا صنعة متكلف يتفاصح. » (٢)

(١) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ، تحـ محمود شاكر، ص ١١٦ مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة.

(٢) ينظر البيان النبوي د. محمد رجب البيومي ص ٢٢٩ وما بعدها بتصرف ، دار الوفاء المنصورة مصر ، ط١، ١٩٨٧ م.

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد : فقد كان هذا بحثاً تحت عنوان (من بلاغة النبي في حديثه عن الصبر) انتهيت من دراسته إلى عدة نتائج أورد أهمها فيما يأتي:

عناية التعبير النبوي ببيان ماهية الصبر في عبارات موجزة أشد ما يكون الإيجاز رغبة في تأهيلها للحفظ، ومن ثم التأثير في نفوس المتلقين، ظهر ذلك في عبارة (الصبر ضياء) وعبارة إنما الصبر عند الصدمة الأولى) وغيرها.

غلب أسلوب الشرط وأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء على الأحاديث التي ذكرت فضل الصبر والجزاء عليه، وذلك لسوق تلك الحقائق في أسلوب مؤكد غاية التوكيد اعتمادً على الطبيعة الدلالية والخصيصة الوظيفية لكلا الأسلوبين.

شيوع أسلوب الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، رغبة في اجتذاب المخاطب وتشويقه وجعله في حالة تيقظ دائم، ونشاط ذهني مستمر، حتى يؤتي الكلام ثماره فيلجئه إلى القبول والإذعان .

التماسك النصي في جميع الأحاديث محل الدراسة، تجلى ذلك في الظاهر والباطن سبكاً وحبكاً على النحو المبين في مواضعه من البحث.

الدقة في اصطفاء الكلمات الواردة في الحديث عن ماهية الصبر أو في الحديث عن فضله والجزاء عليه، بل إن الأمر تعدى ذلك إلى اصطفاء الحروف –خصوصا حروف العطف كالفاء والواو– حيث ورد كل حرف من هذين الحرفين في مكانه المناسب متوائماً مع المقام والسياق.

غلبة بعض الفنون البديعية المعنوية كالطباق في سياق يعنى ببيان ترتب الخير على جميع أحوال المؤمن ومنها حال الصبر، وكمراعاة النظير في سياق التسوية بين جميع المصائب في كونها مُكَفِّرةً للذنوب، وغلبة الفنون البديعية اللفظية كالجناس الوارد في السياق نفسه.

غلبة التناسق الصوتي العجيب المتلائم مع المقام والسياق الموحي بالعديد من الدلالات والمعاني الناجم عن التراكيب المتوازنة، أو الألفاظ المتناسبة ذات الوزن الواحد، وقد مر بيانه مفصَّلاً في مواضعه من البحث.

استثمار وسائل التصوير المختلفة من تشبيه واستعارة لما لها من قدرة على إبراز المعاني في صور محسوسة ولطبيعتها الموحية التي تعمل على إثراء المعاني بما تذيعه في الكلام من ظلال وإيحاءات، لإقناع المخاطب واستمالته، وحمله على الفعل .

تجلى العدول عن الأصل لغاية بيانية في غير موضع، بوضع المظهر موضع المضمر، أو التقديم، أو بأسلوب الحكيم وغير ذلك من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وجاءت كلها استجابة للمقام وملائمة للسياق.

شيوع التنكير في مقام الحديث عن قلة ما يصيب المسلم، فيستلزم الأجر عند الصبر، وفي سياق الحديث عن تعظيم الأجر المنتظر عليه.

هذا، والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير ،،، الباحث

ثبت بأهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية مصر، ط ٧، ١٣٢٣ هـ.
- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني، تحـ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي بيروت، طـ٨، ٢٠٠٥م.
- أعلام الحديث شرح صحيح البخاري للخطابي، تحـ محمد بن سعد آل سعود، جامعة أم القرى مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، طـ١، ١٩٨٨ م.
- الإفصاح عن معاني الصحاح لأبي المظفر عون الدين الشيباني، تحـ فؤاد عبد المنعم، دار الوطن، ١٤١٧ هـ.
- الإيضاح للخطيب القزويني بتعليق البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ١٩٩٩ م.
- الإيضاح للخطيب القزويني، تحـ خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط ٦، ١٩٨٥ م.
- البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، للولوي، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم أ.د عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩ م.
- البلاغة الصوتية في القرآن الكريم د. محمد إبراهيم شادي، دار الرسالة، طـ١، ١٩٨٨م.

- البيان النبوي د. محمد رجب البيومي، دار الوفاء المنصورة مصر ، ط١، ١٩٨٧م
- البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- التصوير البياني ، أ.د محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط ٣، ١٩٩٣ م.
- تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، تحـ شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٧، ٢٠٠١ م.
- حاشية الدسوقي تحـ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت، د.ت.
- دلالات التراكيب أ.د محمد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة، ط٢، ١٩٨٧ م.
- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحـ الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة دار المدني بجدة، ط ٣، ١٩٩٢ م.
- شرح التسهيل لابن مالك، تحـ د. عبد الرحمن السيد ود. محمد المختون، دار هجر، ط١، ١٩٩٠ م.
- شرح رياض الصالحين للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن للنشر الرياض، ١٤٢٦ هـ.
- شرح موطأ مالك للزرقاني، تحـ طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- صحيح البخاري، ، تحـ محمد زهير ابن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط ١، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم تحـ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، د.ت.
- عبقرية محمد عباس العقاد، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٧١ م.
- غريب الحديث للخطابي، تحـ عبد الكريم الغرباوي، دار الفكر دمشق، ١٩٨٢م

- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩ هـ.
- في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية أ.د سعد مصلوح، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٣م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير زين الدين المناوي، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط١، ١٣٥٦ هـ.
- الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، تحـ د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط ١، ١٩٩٧ م.
- الكتاب لسيبويه، تحـ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، طـ٣، ١٩٨٨ م.
- مراعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند، ط ٣، ١٩٨٤ م.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي تحـ محي الدين ديب وآخرين ، دار ابن كثير دمشق، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.
- المقاصد الشافية للشاطبي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي جامعة أم القرى مكة المكرمة،ط١، ٢٠٠٧ م .
- مقاييس اللغة لابن فارس، تحـ عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م.
- المنهل الحديث في شرح الحديث أ.د موسى شاهين، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢ م.
- النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، ٢٠٠٥ م.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي تحـ الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلي دار صادر بيروت، ط ١، ٢٠٠٤ م.
- الوجوه الحسان في علم البيان أ.د سعيد جمعة، ٢٠١٤ م.